

# الخيال

## في الحافظة

بقلم الاب لويس رترفال اليسوعي

الحافظة ويقال لها أيضاً الذاكرة هي قوة باطنة تحاكي الخيالة في بعض اعراضها ألا انها مغايرة لها جوهرياً فبينما الخيالة تسبقي صور المحسوسات ترى الحافظة حسب ما قدمنا من مار توما اللاهوتي ( المشرق ١: ٥٣١ ) تستبقت الماهي التي لا يدركها الحس كالنافع والضار بيد انه ليس هذا الأ فرقاً من الفروق الفاصلة بين هذين القوتين لا يقوم منه تعريف مستوفٍ لاهية الحافظة والشاهد على ذلك ما يزيد المليم اللاتيني من التفاصيل الخطيرة في شأن الذاكرة وقد بسط ذلك في الخلاصة اللاهوتية في الجزء الاول البحث ٢٩ ( ف ٦ و ٧ ) - واذا استخلصنا كنه اقواله واقوال العلماء في هذا الصدد يسوغ لنا وضع هذا الحد للحافظة: انها قوة تمسك النفس من ادخار معارفها السابقة واستحضارها وتحقيقها. فنحن « معارفها » اشارة الى ان الذاكرة لا تقتصر على إعادة المحسوسات بل تشمل ايضاً على كل ما سبق اليه عقلنا وما هجس في خاطرنا وغلد في بالنا. فتنتج من ذلك ان الحافظة قهان متفاوتان تفاوتاً كلياً وهما القسم الحي تشاطرتا فيه الحيوانات غير الناطقة والقسم العقلي يتفرد به الانسان دون غيره

أما الحافظة الحسية (mémoire sensitive, sensible) فربما دُعيت ايضاً بالحافظة الخيالية (mém. imaginative) وذلك لانها تحيي فينا صور المحسوسات كالخيال ألا انها تختلف عن الخيال في امر مهم وهو علمها اليقين بان هذه الصور المترجمة تمثل احساسات سالفة العهد وهذا لعمري فرق ذو شأن يجعل الخيالة

قوة عرداء، تلاحظ جزءاً من الحلق فقط بينما تتمتع الحافظة بكمال النور والجلال. غير أن لكل منهما حاجة ماسة إلى الأخرى لا تكاد هذه تتحرك للعمل دون أن تهب تلك إلى مساعدتها ويعكس قال الأب شاين (P. Chabin) في ذلك ما معناه: لا تنور في النفس صردة ما ادركناه سلفاً إلا وترسع الحافظة وقت اطلاعنا عليه فتذكرنا الظروف التي احدثت به من سرايق ولواحق وغير ذلك. وكذلك كلما منح للذهن ذكر حدث أو فكر لا تلبث الخيصة أن تحضره في ابداع شكل وتكوهه ابهى الألوان فتصبح على هذا النمط مدعاة للحافظة إلى احياء خواطر جديدة تنعكس هي أيضاً في مرآة الخيال وهكذا تتلاحق التصورات والافعال العقلية بسرعة ووفرة تضاهيان السيول المتدفقة. فكأنني بالخيال والحافظة اشبه بشقيقتين توأمتين ولدنا متلاصقتين فلا حياة ولا عمل لاحدهما دون الأخرى تنتفع هذه مما تتناولها تلك من طعام وشراب كما أن ما يرذوي الأولى يمس قوام وظائف الثانية

وليبب يألنا ما قولنا في الحيوان الابلهم هل له حافظة في حصر المعنى إذ ان الحيوان لا معرفة له بالماضي. اجبتا أن للحيوان حافظة حقيقة وذلك لأنه يتذكر كالانسان الامور التي لا يتلها الحس الظاهر فيحضر ما تحمله سابقاً من نافع أو ضار من ملانم أو غير موافق فالكلب مثلاً يعرف بعد مدة مديدة من عامله بالخنو ويفرزه من اوسعه ضرباً وكذلك يميز الاماكن التي تنهأ فيها فيعود إليها وينفر عن الامكنة التي ناله فيها الآلام. فينتج من ذلك أن الحيوان ينام ما اصابه في الماضي لكن ذكره لهذه الامور فعل بسيط فهو يتوصل إلى صورة هذه الاشياء الماضية بيد أنه لا يعرفها معرفة صورية (formelle) أما الانسان فيتأقن له المقابلة بين ما بين لذاكرته وما سلف من حياته فينقاد براسطة تلك المقابلة إلى تعيين وقت حدوث ما يخطر على باله ومن هذا القبيل تكون حافضته اشرف راتم كما أن خياله هو ارفع مقاماً واسمى درجة من خيال الحيوان لتصوره ما لا يقع تحت الحواس كصردة النفس على شكل حمامة وصدرة جبل من ذهب إلى غير ذلك مما لا يمكن الحيوان تصوره

هذا وان الانسان لا يقف عند هذا الحد فاننا لا نعي سابق احساساتنا فقط بل ننتبه إلى ما انتاب خاطرنا من افكار واحكام راقية وهذا بفعل الحافظة العقلية (mémoire intellectuelle) وليست هذه القوة الجليلة باقل فائدة من رصيفتها الحسية

اذ فيها تستوعب مواد كل العلم. وسنورد الى تعريف هذه القوة العجيبة ان شاء الله. اما الآن فنقول ان ما يميز الحافظة العقلية من الحسية فضلاً عن موضوعها الذي يختلف اختلاف المادة من الروح هو ان هذه اي الحسية تُعيد صور الماضيات مخزنة بما راقها من ظرف المكان والزمان اما الذاكرة العقلية فتحضر في البائس ذكر المعولات التي وقفنا عليها سابقاً دون ان تترنبا بكان ولا زمان من تلقاء ذاتها واذا برزت هذه التذكرات العقلية متشحة بوشاح الاعراض الحسية كان هذا من مناعيل الحافظة الحيايية التي طالما تلحق زميلتها عند تشهيرها للمسل. ويتضح من ثمت ان الحافظة العقلية قوة روحانية محضة لا يجوز خلطها بعالم المهيولى

ومن انواع القوة الحافظة نوعٌ يختص بالانسان وحده وهو تتبع سلسلة من الحوسبات او المعولات. ولا بد لانام ذلك من اقامة شبه قياس نظري او عملي تتوصل به الى ما نردم كشف القناع عن جمل حقيقته. لحظتُ مثلاً ان دراهمي نقصت ٢٠ فرنكاً فارغب ان اتذكر فيما صرفتها فأخذ في محاسبة نفسي قائلاً: في يوم امس دفعت ٣ فرنكات لفلان. وكنت حينئذ آتياً من السوق حيث ابعتُ بكذا حاجات الأا الي تصدقت قبل ذلك بفرنكين على عائلة فقيرة اعدها مرة في الاسبوع الى غير ذلك من الجزئيات حتى آتني على الككل واتغطى من ذكر امر راهن الى مراتب فيه الى ان تحقت الككل ووقفت عند نتيجة ارتاح اليها. ومن الفلاسفة من يخصصون بهذا الفرع من الحافظة اسم الذاكرة غير ان هذه اللفظة ترادف اغلب الاوقات اختبا الحافظة اما الانزنج فيدعوها réminiscence ومعنى هذه اللفظة في التحقيق شرارد تذكراتنا التي تتبادر الى ذهننا عنراً من بيوت شعرية مثلاً تندمج بالقصائد التي ننظمها او أدرار لحنية تتخرج با تخمعه من الاغاني دون ان نخفل بها

لنا الآن قولٌ وجيز عمماً يتألف منه عادة فعل الحافظة. فاذا تمكنا بتعريفنا

السابق نرى انه قائمٌ من ثلاثة امور :

الاول ثبوت المدركات في الذهن وهذا بمنزلة تمهد ضروري لقوام امر الحافظة. والثاني إعادتها اي انماشها من سيقها (rappel ou réapparition) وهذه شريطة أيضاً لازمة اما الثالث وبه يمتاز قوة الحافظة عمماً سراها فتتحقق تلك المدركات (reconnaissance) اي ان تنبئ النفس الى حضور الماضيات في الذهن وتيقن

بانها داخلة في سلك ما انقضى مبيعةً للظروف التي راققتها اول مثولها ومقدرة لفترة وقوعها وبهذه الحصة الكريمة تتمدد الحافظة عن الحيلة وتتعالى عنها والأكلات انما لها لا تمتاز عن حركات قريتها

اماً هذا التحقيق فلا يقوم إلا بوجود امرين اولهما وقوفنا على هويتنا (identité personnelle) اي احساسنا باننا نحن الذين شعرنا سابقاً بما نتذكره الآن ثانيها شعورنا بكر الإمان المتابع وهذا ليس في الحقيقة إلا شرطاً لما قبله فينجم من هذه القدمات ان موضوع ذاكرتنا الخاص انما هو الاستحالات التي عرّت نفسنا يوماً فانتبه لها الضير . فهذا الاعتبار اللطيف ساغ للمسيورويه كولار (Royer-Collard) تظير ما نصه: « أننا لا نتذكر الأذاتنا اي اعمال نفسنا وحالتها المتزعة اذ انما يخطر على بالنا ما وقع رأياً تحت نقد ضميرنا »

هذا فيما تباشره حافظتنا مباشرة قانونية غير ان لها من غرائب الامور ما لا تزي ندعة من ايراد طريقة منه . اولاً لما كانت الذاكرة على فرعين بديهية واختيارية يحدث ان الاولى تستظير احياناً على ما تعجز عنه الثانية . مثال ذلك أننا نطيل بعض المرار استكشاف اسم او تاريخ او حادث يستعصي علينا ادراكه فبعد الجهد والعناء لا نحصل على نتيجة مرضية الا اننا في الغديرع الى ذاكرتنا دون ادنى استقصاء كل ما كان البارحة مطوراً مدفوناً في غيار الماضي . - ثم من خواص الحافظة الثرية انها تختلف اختلافًا كبيراً بحسب الاشخاص فمنهم من يسهل عليه حفظ الاشكال والالوان ومنهم من لا يسقط من ذاكرته شي . من الكلمات او الاصوات او الارقام او الاحاديث او التواريخ او الاماكن (mém. locale) او النكت المزلية او الاسماء الخ . لكن هذا مع غرابته معروف حتى من الصبيان . امأ ما ساذكره قائق اطوار المادة ومنخرط في سلك الحوادث الحارقة . منه ظواهر تلقب الحافظة (amnésie) وهو إمأ كلي كما جرى لامرأة اميركية قدت بمدسبات طويل جميع ما تلمتة سابقاً حتى اضطرت ان تتلقن ثانية حروف الهجاء مع طريقة التلقظ بها ثم الارقام والحساب والكتابة شأن الاحداث في المدارس وبقيت على هذه الحالة حتى استولى عليها نوم جديد فامأ استفاقت ثاب الى حافظتها كل ما كانت تعرفه قبل نومها الاول عدا ما درستة خلال النومين ثم امتت تتقلب بين هاتين الحالتين المعجبتين زمناً طويلاً - وإمأ جزئي وهو ان ينسى المريض قسماً

تأ فطن إليه سالفًا فالبعض يفوته الاشكال والبعض اسما الاشخاص او طوائف من الكلم فيحكي من ذلك ان قروياً اصابه القالج فاصبح لا يتوصل الى ذكر الموصوفات والافعال بينما كان يأتي على سائر اقسام الكلام

ومن مفاعيل الحافظة أنها تزيد قوّة في بعض الاحيان حتى تصل الى حد الافراط ولذلك يدعوا الفرنج (hypermnésie) اي الذاكرة المفرطة وفي هذا دليل على ان الانفصالات الدماغية المختصة بالذاكرة لا تحمي آثارها تماماً بل يكفيها منيش خصصي كرض عضال او حادثة مفاجئة لتقدح في النفس شرداً وتشير ذكر ما توارى عن بصرها منذ سنين - قيل ان شاباً اعتراه داء عصبي فاتفق لبعضهم ان جاء امامه بذكر احدى المدارس وطلبها فهيج هذا الحديث في ذهن المريض ما جرى له سابقاً في حياته المدرسية قبل خمس او ست سنين بحدة وذكاه هذا مبلغها حتى تتكهن من مراجعة فروض انشائية سمع تلاوتها اوقات الدروس ثم ملاحظات المدرسين وانتقاداتهم بحروفها

واعجب من ذلك ان انساناً باغته قطاراً وهو سائر بين الاسلاك الحديدية لا يبالي فلماً رأى الموت اقرب اليه من جبل الوريد رمى بنفسه الى الارض ممتداً على وجهه لاصتاً بها حتى مرت عليه جميع العربات دون ان تداعى به اذى غير ان شدة الرعب الذي استولى عليه مثل نصب عينيه كل ما فعل في ماضي حياته كما لو كان مسطوراً امامه في كتاب

ومن الظواهر التي ترمي الى علة في الحافظة قد النطق (aphasie) وإن عر الآ فرع من فقدان الحافظة ومن خواص تلك الحالة المري لها ان الانسان يستطيع نشر افكاره بالكتابة الا انه يضيع ذرعاً عن بقها بالكلم ويظل اشبه بالانرس منه بذي النطق وتغير ذلك مترتب على العلائق الرابطة بين الحافظة والجهاز العظلي فيمرض لعل خفية ان تنقطع تلك الاسباب مؤقتاً فيتذكر الانسان صورة الالفاظ ومعانيها دون ان يتوقف الى التأنق بها

#### متر الحافظة

بقي علينا ان نبحث عن متر الحافظة في الهيكل البشري - قال الشيخ الرئيس ابن سينا نقلاً عن اريسطو ان ساطة القوّة التذكيرة في التجويف المؤخر من الدماغ -

أما المحدثون فيرتأون أنّها في التجريف الجيبي الذي يُدعى (lobes frontaux) وفي بعض مراكز السلسلة القنارية فيذهبون الى أنّ كلاً من هذه المواضع محط رحال لطوائف معارمة من صور الماضي دون غيرها وهكذا يعللون اضمحلال الذاكرة الجزئي كما سبقت اليه الإشارة ثم ظاهرة فقد النطق

وفي الحتام فلنسد اعطر شكر للمولى الكريم لانسامه علينا بهاته القرة التي هي اصلح معين للعقل البشري فكما ان لا تمثّل إلا مسبوفاً بفعل الخيعة كذلك لا نتيجة في التثقف دون عضد الذاكرة. نعم لولاها لكان ساء بصيرتنا مدلهماً حالكا تقطعه حيناً بوارق بروق الافكار ثم يعود الى سابق ظلامه او كانت ارضها قفراً مجدباً لا تشر بانما ولا تورق ناخراً وذلك لتعذر استعمال ابداع مزايا فهمنا من تعميم واحتجاج واقامة دليل او قياس بلا ذاكرة وهب اننا عدنا هذه الجوهرة النفيسة كانت كل افكارنا وما نخدها به من اللغى (العبارات) يقطع من عتلتنا حال اشراقها في عالم الكوائن وكان يستحيل لم شعها لقضاء ارب من نتيجة برهان او ابداء حكم (proposition) فضلاً عن وجود ذرية لقوام عليهم من العلوم او لتذكية قروانا النفاية ار للراصلات الالفية او لنوع من اليقين. فحمدنا لمن وجب ذكر آلايه مدى الاعوام ومجدداً لمن تحم تكرار اسائه على الدوام

## رسالة الطير

للشيخ الامام محمد بن محمد الغزالي

تولى نشرها الاب لويس شينخو اليسوعي

في العدد السابق نشرنا رسالة أولى موسومة برسالة الطير للشيخ الرئيس ابن سينا. ووعدنا بنشر رسالة أخرى بهذا الاسم صنفها حجة الاسلام الشيخ الامام محمد بن محمد الشهر بالنزالي فقياً بهذا الوعد تربين بما هذا العدد من بماتنا

وهذه الرسالة وردت في المجموعة التي وصفتها سابقاً ولا نعلم لها نسخة ثانية وقد وقع فيها بعض أغلط أصحاحنا ودللا عليها في الذيل بحرف (ص) وهذه الرسالة رشت لطيف الى الاحوال